نحو أدب فلسطيني جديد

مايا أبو الحيّات*

رواية الحياة... الحياة الرواية

لا أذكر حداً أصبحت فيه أكبر. متنقلة بين منافي البيوت ووحدة مَن هم حولي وقصصهم التي يحاولون تكرارها كي لا ينسى أحدهم مَن هو، وجدتني أحيك لي قصصاً تشبهني منذ الطفولة، قصصاً تسمح لي بأن أكون الطفلة والشابة والمرأة التي أريد.

على الرغم من ذلك لم أعرف كيف أكبر، وأنا أحاول كل مرة أكتب فيها أن أعرف مَن أنا، ولماذا يحدث حولي ما يحدث، وهل للكتابة دخل في الأمر، هذه الطاقة الهائلة التي تجعل الكتابة وسيلة لاستدرار عطف الآخرين، ثم انشغالهم بالنص، ثم السيطرة عليهم ربما.

كبرت في عمّان، وأنا أحاول أن أحدد هويتي في اليوم الأول من كل عام دراسي، حين تحدد المعلمة في سجل المعلومات الجنسية وعمل الأب وما إذا كنا نمتلك كارت المؤن أم لا. ثم أُسأل فيما بعد عن عمل والدي الذي كان سراً خطراً تؤكد لي عمتي أن عليّ ألاّ أبوح به لأحد، فهو مطلوب من المخابرات الأردنية، مخابرات البلد الذي أعيش أنا فيه كمواطنة، وألقي الشعر في مناسباته الرسمية، للملك والوطن، وألبس الثوب الأردني في احتفالات عيد الاستقلال.

في تونس، وفي الوقت الذي كان أبو عمّار يهز يد رابين على شاشة التلفاز في البيت الأبيض، كان أبي ـ الذي كان يسبّ كل مَن كانوا داخل المشهد ـ يذرف الدموع وهو يخطط للبيت الذي سيبنيه فوق بيت أهله في مدينة نابلس حين يعود أخيراً، وأنا أنظر إليه وأتصور فلسطين قرية كبيرة بلا منازل أو عمارات، وأتعجب ممّا يقوله هذا الرجل الذي يتمنى لو أنه يملك شبراً في مزبلة على أطلال مدينته الأم، من أن يملك قصور العالم كله. حتى تلك اللحظة كنت أظنه يحلم. هو أيضاً كان يعتقد نفسه حالماً، إلى أن أصبحنا فجأة على طريق وادي الباذان المملوء بالينابيع، والذي قادنا نحو جبلَي مدينة نابلس التي سكنّا أحدهما في النهاية.

هل أصبحت أكبر وأنا ألبس سنين المراهقة بين شوارع هذه المدينة الغريبة عني، والتي أصبحت غريبة عن أبي أيضاً؟

* روائية وشاعرة فلسطينية من مواليد بيروت ١٩٨٠. صدر لها: "حبات السكر" ٢٠٠٤؛ "ما قالته فيه" ٢٠٠٧؛ "عتبة ثقيلة الرواح" ٢٠١١؛ "تلك الابتسامة ذلك القلب" ٢٠١٣؛ "لا أحد يعرف فئة دمه" ٢٠١٣.

هل أصبحت أكبر وأنا أحاول أن أتجادل مع أصدقائي وصديقاتي في المدرسة ثم في الجامعة عن الله والشعر والحب والأحلام؟ هل أصبحت أكبر وأنا أفقد أحبّة شهداء ومعتقلين؟

لا أعرف الإجابة في الحقيقة، لكنني أعرف أنني أردت أن أعود لأكون طفلة من جديد مع ولادة أطفالي الثلاثة، أتحرر من ثقل الكتابة المجازية إلى كتابة تفصيلات الحياة اليومية، وأكتشف معهم أن الطفولة من الممكن أن تُعاش في أي وقت ولأي هدف.

الطفولة التي تعني ببساطة، أن لا شيء مهماً كفاية، لا شيء كبيراً كفاية، لا شيء يحدّ كفاية، الطفولة التي تجعل من الآخرين "كومبارس" في شارع أنت تمشي فيه وتلوّح رجليك، وتكاد تطير لأنك سعيد؛ الطفولة التي تسمح لك بالبكاء والنهنهة لأنك تحتاج إلى ذلك. الطفولة التي تجعل من الناس جميعاً أكثر فهماً منك ـ يا للسعادة؛ الطفولة التي تعطيك حرية أن تخطئ ـ أنت فقط مَن يمنح نفسه الحق في ذلك؛ الطفولة الحرية المبكرة والمتأخرة التي نفقدها لأننا نريد ـ يا للجنون.

هكذا، بعد فقدان الثقة بالكتابة، أو حلم صناعة شيء مهم عن طريق الكتابة، وبعد الوصول إلى إدراك أن ماهية الكتابة تكمن في أن تكشف للكاتب أولاً، التفصيلات الصغيرة، ثم للقارئ ـ إن وُجد ـ أعدتُ اكتساب الثقة بالطفولة، وأنا أكتب وأعمل للأطفال ولابتساماتهم الصغيرة والكبيرة والمجلجلة التي لا يهمّ بعدها مادة أو تعليم أو مفاهيم أو قيم.

يشغلني التفكير في الطريقة التي تمنعني ككاتبة من تحويل فلسطين إلى قضية تسويق شخصي، وخصوصاً وأنا أرى مَن يرتفعون (أو ينهزمون) بها من سياسيين وفنانين وكتّاب ومتسولين، لتسويق أهداف ومشاريع شخصية تستدرّ عطف الشاعرين بالذنب من البلاد الأُخرى الذين يستسهلون تقديم الأموال على تقديم الموقف، وأحاول أن أجد ذلك الحدّ الذي يفصل بين تسويق القضية للضعفاء، وبين حشد تأييد الأقوياء ـ إن كان هذا حتى ضرورة.

فلسطين، هذا الاسم الذي يكاد يتحول إلى شعار للمزايدات الإيجابية والسلبية أيضاً، كيف يمكن أن نرتفع بها من مهاترات السياسة إلى تفصيلات الحياة المحتلة كما هي الأرض تماماً؟

أنا التي لم أعايش النكبة وإن كنت عايشت تداعياتها من على بسطات مخيم الحسين؛ أنا التي عشت المنفى وتداعياته في خفّة حقيبتي التي لم يُسمح لها يوماً بحمل أغراضي الشخصية كلها؛ أنا التي لم أعرف الانتفاضة الأولى إلاّ من أغاني مرسيل خليفة وأشعار محمود درويش ونشرة أخبار التلفزيون الأردني؛ أنا التي كدت أموت مرتين أو ثلاثاً في الانتفاضة الثانية؛ كيف أكتب عمّن فقد كل شيء بعد هذه السنين كلها، وأُوثر، إن لم أكن سأكتب عن تفاصيله الصغيرة، أن أكتب عن همّه بالحصول على شوال أسمنت، عن حاجته إلى وثيقة سفر، عن بكاء طفلتي المتواصل على حاجز قلندية لأنها، ببساطة، تريد الدخول إلى الحمام.

مع هذا، أحاول إبعاد شبح الضحايا عن نصوصي وإن كنت لا أملك إلاّ الاعتراف بوجودهم، الاعتراف بأنهم ضحايا لطفاء أحياناً ولئام أحياناً أُخرى؛ ضحايا فاسدون ربما، ومنتفعون كذلك؛ ضحايا أشتبك معهم وإن كنت أجد لهم الأعذار؛ ضحايا أرفض تأليههم و"تبطيلهم" (من البطولة) وإن كنت لا أقف ضد كل ما يفعلونه لمعرفتي أنهم يحتاجون إلى مبرر حياة يجعل هذه الحياة غير المحتملة، محتملة قليلاً.

لكنني ومن أجل فلسطين أيضاً، أنحاز

وبشدّة في الكتابة والأعمال الفنية إلى القيمة الفنية أولاً، ولا أقبل أبداً بالانجرار نحو الشعاراتية والوعظ والاستعلاء الكتابي ـ فقط لأن هذه الكتابة عن فلسطين. نعم يمكن للرواية أن تشكل حياة، لكن لا يمكن للحياة وحدها أن تصنع رواية.

وهذا ما سيجعل ممّا يحدث في فلسطين حدثاً كونياً يمكن فهمه في سياقات السلطة والقوة والحرب والحب والموت والكون والإنسانية الزائفة.

امتلكت صوتي الروائي لأول مرة ليس لأنني أردت الكتابة عن فلسطين، وإنما لأنني أردت الكتابة عن نفسي. وكانت رواية "حكاية زهرة" لحنان الشيخ تمريني الكتابي ـ القرائيّ الأول. صوت الطفلة التي قالت قصتها منحني أنا الأُخرى صوتاً، فتكلمت. ثم منحني حسين البرغوثي في كتبه: "الضوء الأزرق"، و"المرايا السائلة"، و"سأكون بين اللوز"، بُعداً فلسفياً وحّد الكتابة بالفلسفة، وأثار فيّ جدلاً صوفياً سكنني في فترات الجامعة وما بعدها، إلى أن حررتني روايات كونديرا وساراماغو وجورجي أمادو ونثر محمد طملية وآخرين، وأرتني العالم من خلال تفصيلات صغيرة وبسيطة جداً تحدث في أي مكان، فوق حبل الغسيل مثلاً.

لم يعد المكان هو النص، وإن كان النص يشكل لي مكاناً أينما أريد. هذه هي الكتابة في الحقيقة، أن يحررني النص من مكانه وزمانه كي أصير ذلك الكائن الكوني الذي يشبه كل الناس حتى لو كان فلسطينياً. ■

صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

(تقارير مختارة ـ ٥)

المساعدات الخارجية الأميركية لإسرائيل

١٢ آذار / مارس ٢٠١٢

جيريمي م. شارب

٧١ صفحة ٥ دولارات